قراءة سيميائية في كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع[1]

أ.د/بن مالك رشيد
أستاذ التعليم العالي
جامعة تلمسان

-اعتبارات منهجية

فضلنا في هذا البحث أن نضع قيد الدرس و التحليل كليلة و دمنة و تحديدا نص النصيحة التي أسداها الفيلسوف الهندي للملك دبشليم .إن هذا الاختيار صادر عن قناعتنا بأن حكايات كليلة و دمنة لا يمكن أن تفهم إلا إذا قرأنا قراءة معمقة النصيحة التي نعتبرها النص/الإطار الذي يغذي دلاليا الحكايات.و من ثم، فإن أي تأويل دلالي لهذا النص السردي المروي على لسان الحيوان ، يخرج عن النص/ الإطار و محاوره الدلالية الكبرى ،سيضلل القارئ لا شك ، و ينقله إلى مواقع مهزوزة تفتقد إلى القواعد المؤسسة التي ينهض عليها النص في شموليته.و من الواضح أن النص الإطار سيعمل،كما سنوضح ذلك في أثناء التحليل ،على تجلية مجموعة من القيم سيسخرها بيدبا ، امتثالا في ذلك لرغبة الملك ، لصناعة عالم دلالي تشيد عليه الحكايات.

و قد قسمنا النص الذي يتوزع عبر : قبل / في أثناء/ بعد إلى ثلاث مقطوعات أساسية:

①تتحدد المقطوعة الأولى استنادا إلى الإحداثيات الزمنية و الفضائية بـــ قبل ذهاب بيدبا إلى القصر.

②يتصدر المقطوعة الثانية انتقال بيدبا إلى القصر وإسداء النصيحة للملك .

③و تبدأ المقطوعة الثالثة بعد تبليغ بيدبا الرسالة للملك.

و على الرغم من أن هذا التقطيع اعتباطي لتداخل المستويات و تعالقها في الوقت نفسه ، فإنه سيمكن القارئ من درك المحطات الأساسية التي تبرز ، من جهة ، أداءات بيدبا في رحلته العلمية الكشفية بكل تفاصيلها و منعرجاتها و محنها و من جهة ثانية ،سوء تقدير الملك لهذه الأداءات ، و اعترافه في النهاية،بعد ارعوائه، بقيمتها،و أهميتها في تشييد فعل سياسي يحتكم إلى العقل.

[1] بيدبا ، كليلة و دمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع ،الطبعة الرابعة ،مؤسسة المعارف ، بيروت ، 1983.

قبل أن نحلل هذه النصيحة يجدر بنا أن نقدم بعض الإضاءات النقدية لكتاب موسوم بـــ في الخطاب السردي/نظرية غريماس"[2]. للأستاذ محمد الناصر العجيمي،لنعرض على القارئ الاقتراب المنهجي للباحث من حكاية الأرانب و الفيلة و الطريقة التي تبناها في التعامل مع كليلة و دمنة .و سنبني على هذه الملاحظات تحليلنا لنص نصيحة بيدبا.

حاول الباحث في إطار التوجه السيميائي و تحديدا نظرية غريماس أن يقدم دراسة تتوخى الدقة في ضبط المفاهيم الإجرائية و المصطلحية السيميائية العامة،فخصص لذلك قسما نظريا عرض فيه لمستويات التحليل في النظرية السيميائية . فنظر إليها على أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة. و انتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية الأرانب و الفيلة .و هو نص مأخوذ من كليلة و دمنة .و قد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص .بدء من تقطيعه و تحديد مستوياته و النظر في بنينته على الصعيدين السطحي و العميق.و لاحظنا في أثناء قراءتنا لهذه الدراسة أن الباحث يقوم باستعراض ترسانة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات المستعملة في الخطاب السيميائي العربي.و يعترف الباحث نفسه بأنه واجه "القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فردي أساسا"[3] إن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخم لا يساعد في جميع الحالات على إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ.و توحي الطريقة التي تم بها التعامل مع النص سيميائيا بأن الباحث بذل مجهودا خياليا حتى يكون التحليل وفيا للنظرية التي وضعت أصلا لفض الإشكالات التي يطرحها النص السردي على وجه الخصوص .

و إذا أدمنا النظر في تحليل محمد الناصر العجيمي ، و تحديدا في خاتمة هذا البحث ، فإننا نلاحظ أنه انتهى إلى أن القارئ "لا يحتاج إلى نفاذ رؤية– ليتبين من خلال الفيلة – صورة الحاكم المتسلط الطاغية.و الأرجح أن المعني هو أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي يتهدده مصير شبيه بمصير الفيلة ،مصير يؤول إليه كل من أسس

(2) محمد الناصر العجيمي ، في الخطاب السردي /نظرية قريماس(Greimas) ، الدار العربية للكتاب،تونس ،1993

(3) المرجع نفسه ، ص.17

حكمه على " الظلم" ،خارقا بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكومين ،محدثا تصدعا في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية"[4]

إنه يتعامل مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة إلى المجتمع العربي الإسلامي و ينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع .يمكن أن يستغل ، منهجيا هذا الإسقاط ، في مناقشة اختيار عبد الله بن المقفع لترجمة نص تعمل مضامينه ، انطلاقا من تحليله ، على تجلية العلاقة بين الملك و الرعية في

المجتمع الهندي.و يتجه التأويل بعد ذلك إلى إدراك القيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في إشكالية تسيير الفعل السياسي.

و إذا نظرنا إلى هذه الحكاية على أنها جزء من الأجزاء السردية التي تتشكل منها كليلة و دمنة ، فإنها على المستوى التداولي مسخرة لإقناع ملك الغربان بصحة الطرح العقلاني الذي ينزع إليه الغراب للرد بإعمال الفكر و الروية على الهجمة التي قامت بها جماعة البوم.إن النزوع العقلاني بوصفه قيمة أساسية في معالجة الغزو الخارجي أفضى إلى تحقيق الانتصار العسكري و إبطال مفعول كل قوة خارجية تطمح إلى زعزعة الاستقرار الداخلي لمجتمع الغربان . ينبغي أن نرقى بالقيمة الأساسية في هذه الحكاية على المستوى التداولي و نضعها في قلب الحوار الدائر بين الملك دبشليم و الفيلسوف بيدبا الذي يسعى إلى أن يمارس فعله الإقناعي عليه.و تعمل العملية الإقناعية على تجلية القيم الأساسية المسجلة على المستوى العميق لحكايات كليلة ودمنة التي تجري مجرى الخطاب الحجاجي المسخر لإقناع الحكام بأهمية الحوار و المشاورة في المسائل الاستراتيجية التي تخص شؤون الرعية و مستقبل البلد.

حتى نوضح الآلية التي يشتغل بها الخطاب الحجاجي في النص ، ينبغي أن نسلم في البداية بأن الموضوعات السيميائية(كليلة و دمنة على سبيل المثال) المتنقلة من هيئة(اللافظ) إلى أخرى(الملفوظ له) ترتهن في وجودها إلى فعل تلفظي .من هذه المنطلقات سنسعى إلى دراسة نص النصيحة .

1 . *التحريك/الاستراتيجية الخطابية في النص*

[4] المرجع نفسه ، ص.140

تشكل النصيحة رهانا حقيقيا لبيدبا الذي يتحمل لوحده مسؤولية تغيير النظام السياسي من الداخل

و بطرق سلمية . و يهدف هذا الفعل إلى رد الأمور إلى سابق عهدها و تشييد الاستيثاق بين الملك و الرعية .و قد جاء وصول دبشليم إلى سدة الحكم نتيجة لتمرد الخاصة والعامة على ملك سابق أوصله الاسكندر ذو القرنيين دون استشارة الرعية إلى السلطة مباشرة بعد غزوه للهند .و لما كان فعله السياسي معبأ لإذلال الرعية ،فإن هذا الملك الذي يعد من ثقات الاسكندر سرعان ما عزل.إن تمليك الرعية لدشليم مسيج في إطار عقد ائتماني يتم بموجبه تشييد عالم تحكمه مجموعة من القيم جاءت لتسد وضعية افتقار سابقة ناتجة عن سوء التسيير.و بعد أن استوسق له الأمر و استقر له الملك و أحكم سيطرته على الرعية،يخرق دبشليم العقد فيحدث بذلك هوة عميقة بينه و بينها.نلمس ذلك في الأدوار الجديدة التي اضطلع بها دبشليم :طغى، و بغى و تجبر و تكبر[5].و قد حركته هذه السطوة للقبام بأفعال عدوانية: :عبث بالرعية ، استصغر أمرهم و أساء السيرة فيهم[6] .في هذه اللحظة السردية،يفقد الراوي الأمل في تغيير الوضع و حتى في إمكانية التفكير في اقتراح البديل و الخروج من هذا المأزق الذي يهدد الإنسان في وجوده، و كل المؤشرات السردية التي ساقها ترشحه للتدهور و بقائه على النحو الذي ابتغاه دبشليم :"فهابته الرعية،و كان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوا".[7] و لئن كانت الهيبة تلغي كل القنوات التي يمكن أن ترسى لإقامة التواصل مع الملك و الحديث إليه عن أمور الملك ، فإن امتلاك القدرة على مقاومتها و مواجهة الملك يعد أمرا مستحيلا ،لأن ذلك سيؤدي حتما إلى الهلاك:

"غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير
و من دخل على الأسد في غابته ،لم يأمن من وثبته
و هذا الملك لم تفزعه النوائب ، و لم تؤدبه التجارب

[5] ص.11 (من الآن فصاعدا ، سحيل على نص كليلة و دمنة بالصفحة فقط)
[6] ص.11
[7] ص.11

و لسنا نأمن عليك و لا على أنفسنا سطوته و إنا نخاف عليك من سورته و مبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب"[8] .

2.1

إن الفيلسوف بيدبا بحكم امتلاكه للمعرفة و من موقعه كمرسل/مقوم أدرك أن الرعية التي فوضت دبشليم لتسييرأمورها، لم ينفذ برنامجه طبقا للالتزامات المتضمنة في العقد الذي يربطه ضمنيا بالرعية التي تعتبر المرسل الحقيقي الذي أزاح الملك السابق و سلم مقاليد الحكم لدبشليم.و من الواضح أنه من حق الرعية أن تنظر فيما إذا شرف الملك التزاماته أم أنه خرقها في أثناء تسييره للفعل السياسي.إن هذه الفرضية لا تستقيم لأن الملك صنع نظاما يستحيل على الرعية تقويم البرامج التي تفرزها الممارسة السياسية.فهي بين أمرين :السكوت عما يجري أم التدخل في مسألة الملك و المخاطرة بالنفس.و من الواضح أن النزوع إلى الاختيار الثاني سيفضي إلى مواجهة سياسية بين قوتين غير متكافئتين :القوة الأولى مجسدة في دبشليم الذي يملك السلطة السياسية و السلطة العسكرية .أما القوة الثانية التي يقف وراءها بيدبا فإنها تحتكم إلى العقل و الأسلوب الحجاجي في حل المشاكل الكبرى.من هنا فإن امتلاك بيدبا للمعرفة يعد معطى ثابتا في النص :"رجل فيلسوف(...)،فاضل حكيم ،يعرف بفضله ،و يرجع في الأمور إلى قوله"[9].و لما كان يدرك أن " الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه فهو ضائع و لا ناصر له"[10] ،جمع تلاميذه بهدف مشاورتهم و تحريكهم في فعل جماعي تكون الغاية منه حمل الملك على تغيير أسلوب الممارسة السياسية و إحداث وصلة حقيقية بالرعية .و تأتي فكرة التحالف التي اقترحها على تلاميذه من موقع الوشائج المتينة التي تربطه بهم :

"و قد جمعتكم لهذا الأمر :لأنكم أسرتي و مكان سري و موضع معرفتي،و بكم أعتضد ،و عليكم أعتمد"[11] .فهو يحدد لهم من خلال صورة الأسرة انتماءه من ناحية و انصهار أناه من ناحية ثانية في مجموعة تحكمها قرابة علمية مبنية على عقد ثقة.على هذا الأساس،يثمن بيدبا الفعل العلمي الناشئ من فضاء تستثمر فيه القيم العلمية و تصنع فيه

[8] ص.14

[9] ص.11

[10] ص.13

[11] ص.13

المعرفة.من هذا الموقع يستمد القوة الكفيلة بقلب موازين القوى على مستوى هرم السلطة.إن بيدبا يسعى بخطابه إلى تعبئة تلاميذه بوصفهم النخبة المثقفة الفاعلة في المجتمع الهندي .و هي تعبئة قائمة ، على المستوى المعارفي ،على الإقناع بالحجة :" على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل و الجنود"[12] .

و كما استطاعت القبرة أن تلحق أضرارا جسيمة بالفيل المتسلط من خلال تحريكها للغربان(فقأ عيني الفيل) و الضفادع(انتقالها إلى وهدة و إحداث النقيق لحمله على الشرب و السقوط) و كما استطاعت الأرانب بفضل ذكاء فيروز أن تدفع الفيل إلى التوبة من خلال تحريك صورة القمر،فإن بيدبا يملك من القوة(القدرة العقلية) التي تجعله يحول مجرى الفعل السياسي للملك لصالح الرعية.بهذا الخطاب الحجاجي يسعى بيدبا إلى إقناع تلاميذه رغبة منه في انخراطهم في برنامج يرتكز أساسا على البعد المعارفي dimension cognitive في مواجهة الملك: " و لا يمكن مجاهدته بغير ألسنتنا"[13].و لئن كانت مسألة التحالف مع الغير للقيام بهجوم عسكري على الملك غير واردة :"و لو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته "[14] ،فإن فكرة الجلاء عن الوطن غير واردة أيضا :" و ليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن".[15]

إن قراءة بيدبا للبرنامج السياسي للملك جعله يقوم تقويما سلبيا ممارسته للسلطة التي تجسدت عبر أفعال تنصهر في برنامج أساسي موجه ضد وجود الرعية و حقها في الحياة و يبين الحدة التي بلغها الملك في تعامله مع الرعية.و يتجسد هذا البرنامج عبر مجموعة من الأفعال طغى و بغى و تجبر وتكبر(...) ،عبث بالرعية ، استصغر أمرهم و أساء السيرة فيهم[16] ، تعكس طبيعة تعامل الملك مع الرعية و علاقته بها المتوترة و المبنية أساسا على التسلط و الظلم و الإسراف فيه و خرق الحقوق الطبيعية للرعية و السعي بالفساد خارجا عن القوانين المنظمة للممارسة السياسية .

---

[12] ص.13

[13] ص.12

[14] ص.12

[15] ص.11

[16] ص.11

وإذا انتقلنا إلى المستوى الخطابي ، فإننا نلاحظ أن هذا البرنامج يلقى تجلياته في مسارين صوريين.يتضمن الأول مجموعة من الصور تحيل وحداتها المضمونية على حاكم لا يمتثل في سلوكه لمقتضيات النظام الخلاقي الذي يحتكم إليه كل فرد في المجتمع .و يتشكل هذا المسار من الصور الآتية :رداءة السيرة ، سوء السيرة ، قبح الطريقة ، المبادرة بالسوء .أما المسار الثاني الذي يتشكل من صور السطوة و السورة ،و الظلم للرعية ، و الخروج عن العدل و لزوم الشر ،فإنه يعمل على توصيف ممارسة دبشليم للسلطة.و لئن كان دبشليم مشيدا هذه الممارسة على القمع و البطش، فإنه استطاع و بشكل مؤقت أن يلقي الرعب في قلوب الرعية العامة و الخاصة :"فهابته الرعية"[17] و يصرفها بشل قدرتها على الفعل عن كل محاولة تهدف إلى قلب نظامه ، و سيكون لها أثر في إبطال مفعول تحريك بيدبا للعامل الجماعي التلاميذ.من هذه المنطلقات سعى الفيلسوف إلى تحريك الخاصة من الرعية و إقناعها لا بمشروعية خلع الملك و لكن بضرورة تحمل المسؤولية للحديث إليه في أمور الملك . و قد بدأت تتضح معالم هذا البرنامج في شكله المضمر في اللحظة السردية التي مارس فيها بيدبا فعله التأويلي في القيم التي أفرزها البرنامج السياسي الذي نفذه الملك.و قد أفضى هذا التأويل إلى تقييم سلبي حركه للقيام ببرنامج مضاد يكون الهدف منه تحريك الملك للدخول في وصلة بقيم العدل التي يحتكم إليه تسييره للفعل السياسي.

على الصعيد السردي، يسعى بيدبا إلى تحريك الفاعل الجماعي التلاميذ لتأسيسه مرسلا محركا يمارس سلطته المعرفية على الملك لحمله على القيام ببرنامج سياسي ينهض أساسا على المشاورة و الحوار و العدل و الإنصاف في حل المشاكل التي يعرض لها المجتمع الهندي.و على الرغم من أن التلاميذ اقتنعوا بصدق خطابه الذي يلقى توافقا مع طموحاتهم و رغبتهم في التغيير ، و نبل القيم التي يدافع عنها و الرامية إلى إعادة الاستقرار ،فإنهم رفضوا الانخراط في مشروعه تأمينا لحياتهم و خوفا من بطش الملك و سطوته عليهم و عليه .إن خوفهم من رد فعل الملك و توقعهم للهزيمة والشعور بالقلق من خطر وشيك الوقوع يودي بحياتهم أبطل مفعول رغبتهم ، و عطل قدرتهم ،و قلل من أهمية مواجهته بالحيلة (المعرفة).

---

[17] ص.11

2. المواجهة/البنية الجدالية في النص

و إذا كان بيدبا قد فشل في تعبئة تلاميذه ، فإنه قرر مقابلة الملك .و من الواضح أن اتخاذ قرار المواجهة أو تنفيذ المهمة المؤهلة يرتهن في وجوده إلى مجموعة من الجهات التي تدخل في تشكيل كفاءة الفيلسوف الذي أسس نفسه فاعلا في برنامج التغيير في الوقت الذي أدرك الشرخ الموجود بين السلطة و الرعية.في هذه اللحظة ملكته الرغبة في التغيير الذي أضحى المنفذ الوحيد الذي تتسرب عبره القيم الصائنة لكرامة الإنسان .يتمظهر وجوب القيام بالفعل و الرغبة في التغيير عبر الملفوظات الآتية :

"إن الفيلسوف لحقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه و لواحق المحذور"[18].

"فلما رأى الملك و ما هو عليه من الظلم للرعية ، فكر في وجه الحيلة عما هو عليه و رده إلى العدل و الإنصاف"[19].

"و نحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك ،إلا لنردهم إلى فعل الخير و لزوم العدل.

"و لا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه"[20]

"غير أني قد رأيت رأيا و عزمت عزما" [21]

"و قد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم "[22]

إن امتلاكه لهاتين الجهتين سيمكنه من الانتقال إلى تحيين مشروعه الذي سيثير بعض التساؤلات تخص، في المقام الأول، ميزان القوى على مستوى القدرة المادية و هو ميزان في غير صالحه لوجود قوتين غير متكافئتين ، و تخص، في المقام الثاني، أهليته في توقع و برمجة العمليات الضرورية لمواجهة الملك أولا و صرفه عما هو عليه بعد إقناعه ثانيا.يعتبر بيدبا مسألة الغطاء المادي للفعل محسومة سلفا و لا تشكل عائقا و ذلك

[18] ص.12

[19] ص.11.

[20] ص.14

[21] ص.14

[22] ص.14

لإدراكه أن :"العاقل يبلغ بحيلته ما لم يبلغ بالخيل و الجنود"[23].إن بيدبا يثمن ،على المستوى المعارفي ، القوة العقلية المجسدة في الحيلة و التي تفهم في هذا المساق على أنها الحذق و جودة النظر و القدرة على دقة التصرف في الأمور .يتعامل بيدبا مع دبشليم بمنطق مبني على التمييز بين القدرة المادية التي يملكها الملك و المتمثلة في الخيل و الجنود و القدرة العقلية التي تتماهى مع المعرفة و المهارة في التدبير.

إن المنطق الإقناعي الذي يتجسد في حكايات كليلة و دمنة و بشكل خاص في القنبرة و الفيل ،الغراب و البوم الأرانب و الفيلة يطرح فيه الراوي القوة العقلية كبديل للقوة المادية .و سيلجأ إليها بيدبا لمواجهة الملك.

وتبدأ المواجهة بمجرد وصول بيدبا إلى فضاء القصر و ممارسة الطقوس (و امتثاله بين يدي الملك مكفرا ساجدا له) المشيدة بالملك و عظمته .و تعكس هذه الطقوس في بداية الأمر علاقة حاكم بمحكوم يفضل من الناحية الاستراتيجية في بداية هذه المواجهة السكوت عن الكلام :

"استوى قائما و سكت" [24]

"و فكر دبشليم في سكوته"[25].

"وقال له:نظرت إليك يا بيدبا ساكتا لا تعرض حاجتك و لا تذكر بغيتك"[26].

في هذه اللحظة من السرد ،نلاحظ أن بيدبا قلب العلاقة الأولى و أحدث شرخا في عملية التواصل أضحى الملك فيها تابعا له ينتظر موضوع النصيحة و يفكر في سكوته .من الواضح أن النص في بنينته يقترح ،على المستوى التداولي ، تأويلا للسكوت انطلاقا من الوضعية التلفظية التي يحتلها الملك .تأسيسا على هذا ،فإن السكوت أحدث افتقارا لدى الملك و حركه للقيام بعملية التحري عن مضمون النصيحة و مغزى الزيارة و من ثم إعطاء معنى للسكوت .و لئن كان مضمون النصيحة قول فيه دعاء إلى صلاح و نهي عن فساد ،فإن دبشليم أقصى هذا المنحى تماما من موضوع قول بيدبا لقناعته بالميثاق الذي فرضه على الرعية و الذي لا يكفل حرية الرأي في أمر الملك :

---

[23] ص.13

[24] ص.15

[25] ص.15

[26] ص.16

"و إن يكن من أمر الملك ، و مما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم و لا ينقادوا إليه نظرت في قدر عقوبته،على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك "[27]. و إذا كان الملك قد استبعد حديث بيدبا عن الملك من خطابه ، فإنه احتفظ بهذه الإمكانية و توقع أنه سينظر في قدر عقوبة بيدبا لو أدخل نفسه في هذه المسألة.بهذه القراءة يكون الملك مقتنعا بحقيقة موضوع رغبة بيدبا ، و من ثم ،فإنه سيج إطار بغيته في أمرين :

-"إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله

-و إما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة"[28].

إن هذا التأويل يضع بيدبا في وضعية فاعل لا يملك القدرة على تحقيق موضوعه.و بالتالي فإن قدومه يؤول في الحالتين على أنه طلب إعانة و تحر عن موضوع جهة (القدرة على الفعل).و سكوته عن طلب الإعانة هو من منظور الملك صادر عن كون العلم و الحياء إلفان متآلفان .و بالتالي ، فإن حياءه هو الذي أثناه عن طلب المساعدة.و إذا كان سكوت بيدبا حرك الملك للتفكير في أمر العلماء ، فإن هذا يعني أن بيدبا افتك منه ، بفضل سكوته، أولا: الاعتراف بفضل العلماء الذي يعد في حد ذاته تمجيدا لهم.ثانيا : استعداده للنظر في مساره السياسي و في حقوق الحكماء و رفع الظلم عنهم .ثالثا :قابليته لنفي الجهل و تثبيت العلم كقيمة أساسية في المجتمع:

"و من لم يستحي من الحكماء و يكرمهم و يعرف فضلهم على غيرهم ،و يصنهم عن المواقف الواهنة ،و ينزههم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله ،و خسر دنياه ،و ظلم الحكماء حقوقهم ،و عد من الجهال"[29].

من هذه المنطلقات ، يمكن أن يدرك القارئ بأن الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته و استراتيجية (حيلة) سخرها بيدبا لجس نبض الملك أولا ،و حمله ، من دون أن يشعر ، على قبول الحوار ثانيا ؛ و من ثم جره إلى تنازلات كان يستحيل أن يقوم بها قبل عزمه على الذهاب إليه و رفع التحدي بمواجهنه.

"و أنا قد فسحت لك في الكلام"[30]

---

[27] ص.16

[28] ص.15

[29] ص.16

على الرغم من أن لهذا الملفوظ وقعا إيجابيا على نفس بيدبا إلا أن ذلك لم يكن كافيا لحمله على الحديث الصريح إلى الملك .و مع ذلك ،فإنه استغل الفرصة ،و بدأ يمهد للحصول على تنازلات أخرى من جهة و لتنفيذ خطته و الإعراب عن بغيته من جهة ثانية و إذا أدمنا النظر في هذا التمهيد ،فإننا نلاحظ أن بيدبا أقصى من خطابه الحديث عن العلاقة المتوترة بينه و بين الرعية و أملها في رفع الغبن عنها،ليتوجه إلى الذات الإلهية بدعوتها لمؤازرته للحفاظ على ملك دبشليم .إن الإعلان عن هذه الرغبة محمل برسالة تبعث على انشراح الملك و تخرجه في الوقت نفسه من الانقباض و من متاهات البحث عن جواب على هذه الزيارة المفاجئة لأن موضوع النصيحة لن يتضمن تبليغه رغبة الرعية في إحداث القطيعة مع الملك و إزاحته عن الملك .و نلاحظ أيضا أن بيدبا قدم في هذا المقام التلفظي فعلا تأويليا ينهض على تقويم إجابي(كرم الملك ،و إحسانه) للممارسة السياسية للملك في تعامله مع فئة العلماء.و يدخل هذا التقويم الإيجابي المسجل على مستوى الظاهر و المسخر لاستمالة الملك في علاقة تضاد و تعارض مع التقويم السلبي الذي أفرزه تأويله لبرنامج الملك المسجل على مستوى الكينونة و المتميز بالظلم و الاستبداد قبل لقاء بيدبا بدبشليم .

إن بيدبا يعرب في بداية الأمر رغبته في عقد تواصل حقيقي بالملك و حتى يتم له ذلك فإنه لا يدخر جهدا لكسب ثقته. و يقوم على هذا الأساس بنفي كينونته ليقدم للملك ظاهرا عاكسا بذلك وضعية صادقة للملك و هي في الحقيقة كاذبة من وجهة نظر القارئ .

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت :فإني مصغ إليك ،و سامع منك،حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره ،و أجازيك على ذلك بما أنت أهله "[31].

إذا أدمنا النظر في هذا الملفوظ ، فإن الملك ارتقى بالتنازلات التي أشرنا إليها سلفا إلى إقامة عقد ائتماني مع بيدبا و الترخيص له الحديث و إسداء النصيحة بكل حرية و مكافأته.و سيكون لهذه الالتزامات التي قيد الملك نفسه بها تأثير كبير في المرحلة الحاسمة التي سيواجه فيها الملك بخصوص مسألة الملك .و قد أدت هذه الضمانات

(30) ص.16

(31) ص.17

المتبادلة و المتسمة بالصدق إلى تلطيف أجواء الحوار و رفع القيود على بيدبا في مقام يتطلب الحذر و التحفظ الشديد .و يظهر ذلك واضحا في الملفوظ الآتي :

"فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه،و سري عنه ما كان وقع في نفسه من خوفه"[32].

و إذا كان بيدبا مضطربا بفعل الخوف الذي يشكل عائقا حقيقيا لتبليغ معرفته للملك ، فإنه استطاع بمهارته و ذكائه و حكمته أن يتجاوز هذه العقبة بتقديمه النصيحة على أنها امتياز خص به الملك.و بالتالي فإنها هبة تشكل شكلا من أشكال التواصل الرامي إلى عقد رباط وصلي بالملك .في هذه اللحظة السردية يشرع بيدبا في تنفيذ برنامجه في شكل اقتراحات على الملك .إن هذا البرنامج يختلف من حيث الطبيعة عن البرامج التي ألفها القارئ في النصوص السردية حيث يسعى الفاعل المنفذ من خلال تحريه عن موضوع القيمة إلى الدخول في وصلة به.و لئن كان بيدبا يملك الموضوع (المعرفة) و يسعى من موقعه كمحرك ،فإن النصيحة هي ، من جهة، محصلة لقراءة سياسية في برنامج الملك الذي يعد هيئة متلقية و مؤولة ، و من جهة ثانية اقتراح لبرنامج آخر يهدف إلى تحقيق بغيتين أساسيتين :

أ)البغية الأولى:يعبئ بيدبا كفاءتة التي يفترضها النص لحمل الملك على الابتعاد عن القيم السلبية التي تتسم بها ممارسته السلطة السياسية و إقناعه بالدخول في وصلة بمجموعة من القيم ستكون لها انعكاسات إيجابية في إعادة بناء علاقة جديدة بينه و بين الرعية.تأسيسا على هذا ،فإن بيدبا ، من خلال اقتراحه النصيحة، يرغب في تأسيس الملك فاعلا منفذا في برنامج سياسي جديد كفيل بنقل الملك من وضعية فصلة عن الرعية إلى وضعية وصلة بها و نقله من سوء التدبير إلى حسن التدبير.و إذا دققنا النظر في هذه المسألة،فإننا نلاحظ أن تحريك بيدبا سيشتغل على مستوى كفاءة الملك في اتجاهين :

- أولا : تبليغه المعرفة في ممارسة السلطة .
- ثانيا :ترغيبه في تطبيقها.

[32] ص.16

إن مسعى بيدبا يكمن أساسا في محاولة الحصول على التزام من الملك بتنفيذ البرنامج المقترح.و يبدو الدور العاملي لبيدبا واضحا في النص ؛ فهو في جميع الحالات يضع الملك بين اختيارين :القبول أو الرفض .إن حدوث الحالة الثانية تفضي إلى نتيجتين :

– النتيجة الأولى :تسليط العقوبة على بيدبا لأنه من منظور الملك اخترق حدود العقد بحديثه عن أمور الملك.

– النتيجة الثانية :يرفض رفضا قاطعا التطبيق و يخرجه من القصر .في كلتي النتيجتين يكون قد خرج من لوم يلحقه. إن تبليغ المعرفة يرتهن في وجوده إلى جهة أساسية في كفاءة بيدبا. إنها الوجوب(يجب عليه أن يبلغ الملك) الذي يشكل، فضلا عن كونه جهة ، قيمة استخلصها من تأويله لخطابات العلماء الذين سبقوه :

"الواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء.و الواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ،و تأديبها بحكمتها،و إظهار الحجة البينة اللازمة لهم ،ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج و الخروج عن العدل.فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقدوهم من رقدتهم"[33].

يمكن أن ننظر في هذه الملفوظات على أنها متضمنة ،على الصعيد المعارفي،برنامجين أساسيين :يتصدر البرنامج الأول عامل جماعي يتحدد دوره بوجوب الاتعاظ .فهو من هذه الناحية خاضع للعامل الجماعي العلماء الذي يضطلع في البرنامج الثاني بمهمة تبليغ المعرفة المبنية على الحجة و الصادرة عن تأويلهم للممارسة السياسية للملوك .إن مسألة تلقي المعرفة تتسم بالطابع الإلزامي.يعني أنه ليس للملك الحق في رفض النصيحة .فهو ملزم بالإصغاء و التنفيذ.و من ثم، فهو مقيد بعقد إلزامي[34] تكون فيه الرغبة في التنفيذ تابعة و تحصيل حاصل:

العقد الإلزامي=/ وجوب الفعل / ⟸ /الرغبة في الفعل/.

من هذه الزاوية ، فإن العلماء يملكون السلطة في اتخاذ قرار التوجيه السياسي كلما حدث خلل(حدوث الاعوجاج و الخروج عن العدل) في تسيير شؤون الرعية. أما الملوك، فإنهم يشكلون الهيئة التنفيذية التي تطبق ما تقرر.

---

(33) ص.23

(34) A.J.Greimas ,J.Curtés ,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,HU,Paris,1979,189.

"فإن فسح في كلامي و وعاه عني ،فهو حقيق بذلك و ما يراه ،و إن هو ألقاه ، فقد بلغت ما يلزمني و خرجت من لوم يلحقني"[35] .

"فرأيت أن أجود بحياتي ،فأكون قد أتيت فيما بيني و بين الحكماء بعدي عذرا .فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده" [36].

يقدم بيدبا في هذين الملفوظين الحالات الجديدة التي يتوقع أن يفرزها البرنامج الأساسي الخاص بمواجهته للملك.الحالة الأولى تنتج عن الفعل التحويلي الذي يمارسه بيدبا على الملك فيخرجه من وضع يكون فيه في فصلة عن المعرفة إلى وضع يكون فيه في وصلة بها.و إذا فشل في تحويل الملك الذي انتصب معارضا لأي رغبة في إسداء النصيحة ،فإن هذا الفشل يولد حالة جديدة يكون فيها بيدبا قد شرف التزامه المتضمن في العقد الذي يربطه بفئة العلماء :

"و الواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ،و تأديبها بحكمتها،و إظهار الحجة البينة اللازمة لهم ،ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج و الخروج عن العدل"[37]

و بالتالي فإنه يكون متحررا من عبء مسؤولية تبليغ الملوك:

"خرجت من لوم يلحقني[38] ".

ينظم بيدبا ،في بداية المواجهة الكلامية ، خطابه بضمير المتكلم و يتوجه به إلى الملك مباشرة :"أيها الملك إنك في منازل آبائك و أجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك"[39].

حتى نفهم الآلية التي يشتغل بها الملفوظ ،نقدم الخطاطة الآتية:

سرد وقائع الملوك السابقين بضمير الغيبة /هم/

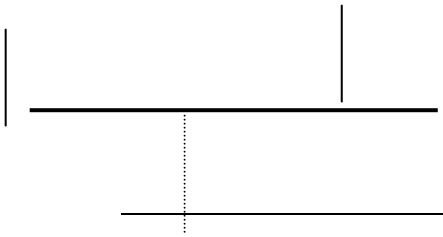

[35] ص.16

[36] ص.24

[37] ص.23

[38] ص.17

[39] ص.19

الوصل: الرجوع إلى اللحظة الحاضرة

embrayage

الفصل :الارتداد إلى الماضي débrayage

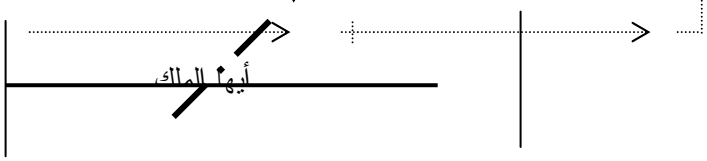

يحدث اللافظ،في هذه الخطاطة، خرقا زمنيا في اللحظة الحاضرة ، يعلق الخطاب ليروي وقائع آباء و أجداد دبشليم. من خلال هذه الإضاءات ، تتحدد أدوارهم العاملية في تشييد الملك و بناء القلاع و الحصون و قيادة الجيوش . و يستند تحقيق هذه الأداءات إلى كفاءة سردية مفترضة . لم يقدم الراوي التفاصيل بخصوص الكيفية التي تم بها تحقيق هذه الأداءات المتنوعة. إن الحديث الموجز عنها هو بمثابة رسائل مشفرة يفترض فكها معرفة التفاصيل الدقيقة حول هذه الوقائع التاريخية .و بالتالي فإن الراوي مقتنع بأن الملك يملك الكفاءة لفك الشفرات.إنه من خلال هذا السرد الموجز يقدم للملك النقاط المعلمية الكبرى الخاصة بالممارسات السياسية للملوك السابقين.إن الراوي لم يسم هؤلاء الملوك ملكا ملكا . يقودنا بناء العامل الجماعي بهذا الشكل إلى فهم طبيعة ممارسته السياسية المتسمة بالتسيير الحسن لشؤون الرعية .تمثل هذه الممارسة على الصعيد الخطابي تشكلا يضم مجموعة من المسارات الصورية يمكن أن نقدمها على النحو الآتي :

الممارسةالسياسية للملوك السابقين

التسيير الحسن لشؤون الرعية

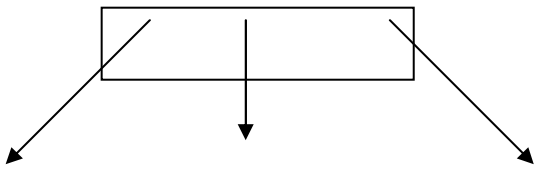

الاستعمال الحسن إلى من خولوه الإرفاق بمن ولوه حسن السيرة فيما تقلدوه
(40)

(40) ص.19

إن ذه لمسارات التي تحيل وحدات صورهاالمضمونية على التدبير الحسن و المرونة في تقليد المهام و تكليفها بمن حسنت سيرتهم،تعمل على تحديد الشخصيات التي ضطلعت في برنامجهابمهمةإرساءقنوات لاتصال بالرعيةوتشييدعالم يبعث لىالانشراح:"وعاشواالدهورفي لغبطةوالسرور"[41].

و قد عرض بيدبا بعض معالم هذا العالم المحقق في الماضي و المتسم بالحياة على الملك ليرسم له بذلك نقطة ارتكاز دالة و محملة برسائل تستهدف في المقام الأول عالما آخر أقامه دبشليم على أنقاض عالم جميل سابق.إن عالم دبشليم على النحو الذي يعرضه بيدبا عالم مضطرب و منهار بفعل تمزق الوشائج التي تحكم الراعي بالرعية. و بالتالي فإن هذه الرسائل مسخرة لخلق التناقض بين عالمين :عالم يبعث على الحياة و الانشراح و عالم يبعث على الموت و الانقباض.

إن التشكل الذي يعمل على تجلية المستوى السردي تقدم مساراته صورا ليست منغلقة على نفسها بل إنها تتوسع لتحدث وحداتها تجانسا دلاليا يعمل على توصيف الطابع الوحشي للممارسة السياسية:

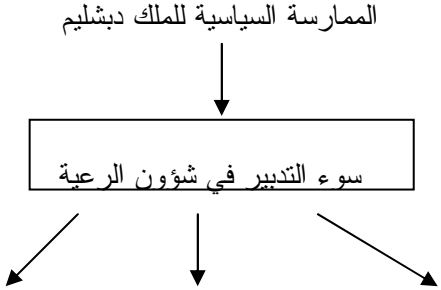

طغا،بغا،عتا و علا على الرعية أساء السيرة عظمت منه البلية

و يمكن أن نفهم هذه الصور في علاقتها بالصور السابقة المؤطرة للملوك السابقين بالنظر إلى العلاقة التي تربط الصعيد السردي بالصعيد الخطابي.إن عملية الربط هذه متصلة أشد الاتصال بالمسارات الصورية التي تحيل على وضعيتين سرديتين متمايزتين و متلاحمتين في الوقت نفسه.

(41) ص.19

①تتحدد الوضعية السردية الأولى بعامل جماعي، الملوك، الذي تعددت برامجه و تنوعت بتنوع معارفه في التسيير . و قد جاءت هذه المعارف نتيجة لاحتكاك الملوك السابقين بالعلماء الذين يحتلون في هذه البرامج موقع المرسل المحرك الذي يخطط و يقرر كلما لاحظ اعوجاجا أو خروجا عن العدل .و إذا دققنا النظر في هذه المسألة ،فإننا نلاحظ أن هذا العامل يتحدد عبر دورين أساسيين : يتمثل الدور الأول في تحريك و تفعيل كفاءة الملوك .إنه بحكم هامش المناورة الذي يتمتع به يفعلهم بتنصيبهم فاعلا منفذا في البرنامج السياسي .و يسخر هذا الفاعل فيه كفاءته لتحقيق الأداء السياسي الذي يتمظهر على المستوى الخطابي من خلال:

①الاستعمال الحسن إلى من خولوه

②الإرفاق بمن ولوه

③حسن السيرة فيما تقلدوه

و يقودنا ضبط هذه المسارات إلى افتراض أربع مراحل غطاها الفاعل (الملوك السابقون) البرنامج السياسي الذي اضطلع بمهمة تنفيذه.و يمكن أن تأخذ موقعها في المربع السيميائي على النحو الآتي:

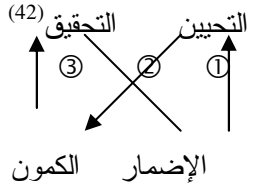

يتحدد الإضمار على مستوى الكفاءة الجهاتية بالرغبة في تسيير شؤون الرعية و وجوب رعايتها بالتدبير الحسن .أما التحيين ، فإنه يتمظهر من خلال الجهات المؤهلة(معرفة الفعل،القدرة على الفعل) للفاعل في ممارسة فعله السياسي.

و يجسد الكمون الحالة الشعورية للفاعل و استعداده النفسي الذي يمكنه من تحقيق القيم و إرساء قنوات التواصل بالرعية .و لئن كانت هذه المراحل الأساسية الضامنة صيغ وجود الفاعل السيميائي ،متخفية في النص و لا تأبى أن تظهر بشكل صريح على المستوى

(42)) J.Courtés , L'énonciation comme acte sémiotique , Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998,p.24.

السردي ، فإن القارئ من خلال بعض المعطيات النصية المقيدة سلفا يستطيع أن يسلم بوجودها .و تتأكد هذه الفرضية بفعل الإنجازات التي حققها الملوك السابقون على الملك دبشليم.و ما كان لهذه الأداءات أن تتحقق في غياب كفاءة مفترضة .

② أما الوضعية السردية الثانية و التي تختم الرسم السردي ، فإنها تأتي في الامتداد الطبيعي لأداء الملوك ، و تنتصب في النص بالفعل التقويمي للبرنامج السياسي .و يمكن أن نلمس ذلك من خلال ثلاث مستويات :

أ/ في المستوى التيمي يعبر الملوك عن رضاهم و انشراحهم بإنجازاتهم السياسية:"و عاشوا الدهور في الغبطة و السرور "[43].

ب/المستوى الثاني،تضطلع الرعية بدورين عامليين.يتحدد الدور الأول من موقعها كمرسل إليه/ مستفيد من الإنجازات السياسية المحققة.و يتحدد دورها الثاني بالفعل التقويمي الذي تقوم به الرعية من موقع المرسل/المقوم لإنجازات الملوك :"فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ، و لا قطعهم عن اغتنام الشكر"[44].

ج/يعد المستوى الثالث محصلة للمستويين السابقين.إن التقويم الإيجابي المحدد للمسار السياسي للملوك[سواء كان هذا التقويم انعكاسيا أو متعديا] هو بمثابة الحجة القاطعة التي يقدمها بيدبا لدبشليم لحمله على رأب الصدع الذي أفضى إلى إحداث شرخ في المتصل السياسي الضامن لعملية التواصل بين الحاكم و المحكوم .

من هذه المنطلقات ، نزع بيدبا في خطابه الحجاجي إلى مواجهة الملك بالارتكاز على وضعين متمايزتين . يمتد الزمن ،في الوضعية الأولى ، على مدى دهور بأكملها تعاقب عليها ملوك استطاعوا أن يشيدوا عالما متوازنا و متوافقا مع طموحات الرعية .أما الوضع الثاني الذي تتضاءل مدته الزمنية لتغطي برهة من الدهر متسمة بالاضطراب و تمزق القيم ،فإنه ينتصب ليحدث التناقض بين مرحلتين منفصمتين.في هذه اللحظة من السرد، يحدث بيدبا خرقا زمنيا في المتصل السردي لينقل دبشليم من عهد مضى بكل إيجابياته و هو عهد الملوك السابقين ، و ينبري ليوجه خطابه في اللحظة

[43] ص.19

[44] ص.19

الحاضرة (الآن ،الهنا)و في صيغة ضمير المتكلم إلى الأنت .إنها معارضة سياسية متضمنة إدانة مباشرة للملك:

"إنك أيها الملك (...) قد ورثت أرضهم و ديارهم و أموالهم و منازلهم التي كانت عدتهم ،فأقمت فيما خولت

ب من الملك و ورثت من الأموال و الجنود فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ، بل طغيت و بغيت و عتوت

و علوت على الرعية ، و أسأت السيرة و عظمت منك البلية"(45) يقوم بيدبا في هذا الملفوظ البرنامج السياسي للملك .و إذا كان هذا التقويم ينهض على القيم السلبية التي أفرزتها ممارسته السياسية ، فإنه لا ينفصل على الإطلاق عن تقويمه الإيجابي للمسار السياسي للملوك السابقين.إن لخطاب بيدبا عينا على الماضي الحافل بالإنجازات و عينا على الحاضر أيضا و لكنه حاضر تتسرب عبره صور الطغيان و العتو و العلو و البلايا . و يقودنا هذا المسار الصوري الخاص بالملك إلى افتراض مجموعة من البرامج السردية حركها الملك في الاتجاه المضاد لرغبات الرعية و طموحاتها المشروعة .إن بيدبا في صناعة خطابه الحجاجي لم يعرض على الملك التفاصيل الدقيقة لممارسته السياسية و لم يعرض عليه أيضا و في الوقت نفسه التفاصيل الدقيقة التي أدت إلى حدوث الأضرار التي لحقت بالرعية ، و لكنه اكتفى فقط بذكر نتيجة الفعل السياسي الذي مارسه الملك على الرعية فخلق بذلك وضعا يتسم عبر المسار الصوري الذي يحيل عليه بالاضطراب و الموت .و هو وضع يدخل في علاقة تضاد بالوضع الذي أفرزته ممارسة الملوك السابقين و المتسم بالاستقرار و الحياة .تأسيسا على هذا يتمفصل الخطاب السردي في نص النصيحة على ثنائية أساسية تخترق النص و تمنحه التجانس الدلالي :

حياة عكس موت

و من الواضح أن بيدبا الذي تنقل إلى القصر بمحض إرادته للدفاع عن الرعية و رغبتها في الوجود و الحياة ، فإنه لم يفعل ذلك بناء على تكليف مباشر صادر منها ، بل من موقع

(45) ص.19

قناعته بضرورة التغيير الهادف إلى استرجاع الحقوق الجماعية للرعية .و لئن كان هـذا العامل الجماعي يفتقد في النص ، و تحديدا في المشروع المتضمن إسداء النصيحة إلـى الملك ، إلى الدور الذي يمكن أن يضطلع به للدفاع عن حقوقه و تطلعاته المشـروعة ، فإنه في وضعية عاملية أخرى و في عهد سابق ، انبرى لخلع الملك الذي خلفـه علـيهم الإسكندر:

" ...و لا ترضى الخاصة و العامة أن يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم و لا من أهل بيوتهم .فإنه لا يزال يستذلهم و يستقلهم .و اجتمعوا يملكون عليهم رجلا من أولاد ملوكهم ، فملكوا عليهم ملكا يقال له **دبشليم، و خلعوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الاسكندر**" [46].

في هذا الملفوظ ، تنصهر الخاصة و العامة في فاعل جماعي واحد يتحـدد دوره علـى مستوى الترسيمة السردية من خلال عملية التحري(تحقيق الأداء) التي يقـوم بهـا ليـرد الأمور إلى نصابها و بالتالي إعادة الاستقرار و الكرامة للإنسان .إن رغبة الفاعل في خلع الملك تلقى مصدرها في عزمه على عزله.و يأتي هذا الفعل المحـول، علـى الصـعيد المعارفي، في الامتداد الطبيعي للقرار السياسي الذي اتخذ جماعيا(اجتمعوا).و عليه ، فإن تنفيذ هذا القرار و تمليك دبشليم و منحه الثقة جاء نتيجة لإجماع الخاصة و العامة (الفاعل المنفذ).يسكت النص في هذه الوضعية العاملية عن ذكر الإطار التنظيمي لهذا الاجتماع ، و يسكت أيضا عن ذكر الأطراف الفاعلة في صناعة القرار.و إذا عقدنا مقارنة بين / أ / و / ب/ ، فإننا نلاحظ أن القرار الذي اتخذه بيدبا في الوضعية العاملية /ب/ هو محصـلة لعمل فردي اقتصر فيه على مشاورة الفئة الخاصة (تلامذنه)و طلب معونتها لمواجهـة الملك .إن اتصاله بالفئة الخاصة و محاولة حملها على التنقل معه إلى القصر قد يكـون صادرا عن دركه بأن الملك لا يرفض الاجتماع بها و الإصغاء إليها و ذلك لقناعته "بأنـه يعرف فضلهم على غيرهم"[47].و يمكن أن نؤول غياب الفئة العامة من هذا برنامج الذي قرر بيدبا تنفيذه على أنه يتوافق مع طبيعة المشروع الذي لا يحتاج إلى قدرة مادية فـي المواجهة .و بالتالي فإن كفاءة بيدبا تنهض في المقام الأول على المعرفة التي ينبغـي أن

[46] ص.11

[47] ص.16

تسخر لإقناع الملك بضرورة سلوك سبيل الأسلاف و تتبع آثار الملوك قبله بإحداث وصلة بالمتصل السياسي:

"و كان الأولى و الأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك ،و تتبع آثار الملوك قبلك ،و تقفو محاسن ما أبقوه لك ، و تقلع عما عاره لازم لك ،و شينه واقع بك ،تحسن النظر برعيتك ،و تسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره" [48].

ينزع بيدبا في هذا الملفوظ بخطابه لتوصيف وضع في زمن مضى تتسرب عبره مجموعة من القيم يتوافق فيها الحاكم و المحكوم ، و هذه القيم التي تجسدها المحاسن و آثار الملوك السابقين حاضرة ، إنها إرث و إذا كان الأمر كذلك ، ينبغي أن يرثها الملك كما ورث الأرض و الديار و الأموال و المنازل(انظر ب أعلاه) .بهذا المنطق الحجاجي ، يمارس بيدبا فعله الإقناعي و سلطته المعرفية على الملك لحمله على تغيير سياسته .و تتصدر هذا التحريك الجهة الوجوبية المتضمنة تبليغ أمر بالتنفيذ " و كان الأولى و الأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك ... " .غير أن هذا الأمر قد يقبله الملك أو يرفضه .إن المنطق الذي يشيد عليه بيدبا الخطاب الحجاجي يقودنا إلى اعتبار الرفض مسألة غير واردة لأن الملك يدرك أنه يستمد سلطته من الرعية التي أوصلته إلى الحكم (خولت من الملك) بهدف اقتفاء سياسة الملوك السابقين .و يعني رفض نصيحة بيدبا الصادرة عن إشفاقه عليه ، بكل بساطة ، سحب الرعية الثقة منه لخرقه العقد ، و يلقى ، في هذه الحالة، نفس مصير الملك السابق.

"فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به ، و لا التماس معروف تكافئني فيه،و لكني أتيت ناصحا مشفقا عليك" [49].

يحدد بيدبا ، في هذا الملفوظ، بدقة موضوع القيم الذي يسعى إلى تحقيقه في عملية التحري التي تتموضع على نظير المعرفة .إن الفاعل المنفذ في هذا البرنامج لا يسخر خطابه الإصلاحي في سبيل تحقيق مجموعة من القيم المادية، و بالتالي فإن هذا البرنامج لا يمكن أن يشيد على بنية التبادل التي تقضي بتقديم بيدبا خدمة للملك للحصول على

[48] ص.20

[49] ص.20

مكافأة .تحتكم هذه البنية إلى النظام الخلاقي الذي يقتضيه العقد المقترح على بيـــدبا فـــي بداية اللقاء :

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت :فإني مضغ إليك (...) و أجازيك على ذلك بما أنـــت أهل له" [50].

إن المكافأة هنا هي شكل من أشكال الإغراءات المادية التي لجأ إليها الملك لشـــل قدرتـــه على القول في شؤون الملك.

و يعني رفض بيدبا هذا العرض خروجه من نظام و الدخول في نظام خلاقي آخر يهدف، من جهة ، إلى تقديم النصيحة للملك مقابل الحصول على تنازلات تكفل الحقوق الجماعية للرعية و يهدف من جهة ثانية،على مستوى البنية العميقة للنص، إلى نفي الجهل و تثبيت المعرفة التي تنهض عليها الممارسة السياسية ["فإن الجاهل المغتر من استعمل في أمـــور البطر و الأمنية،و الحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة و الرفق" [51]]

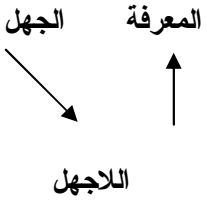

و يتعزز هذا التأويل ،على الصعيد العميق، بتقويم الملك السلبي لنصيحة بيدبا ، و بالتالي رفض المعرفة ،بوصفها جهة يحتكم إليها الفعل السياسي،كبديل للجهل:

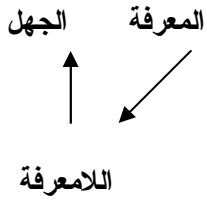

[50] ص.17

[51] ص.20

و نلقى تجليات هذا المسار الدلالي في رد فعل الملك الحاد و المتوافق مع درجة التوتر العنيفة التي أحدثتها النصيحة:

"أوغر صدر الملك

فأغلظ له في الجواب"[52]

تتحدد صورة /أوغر/ [53]في حرارة الغيظ الذي يعتبر من الحالات القصوى للغضب.إن الملك لم يتوقع أبدا أن نصيحة بيدبا ستكون بمثابة صدمة عنيفة باغتته و خيبت آماله و حرمته من امتياز(مدح بيدبا للملك)يعزز نفوذه السياسي.و هذا يقودنا إلى القول إن الملك حرض الفيلسوف على الكلام لأنه كان مقتنعا في اللحظة الأولى التي جمعته به أن النصيحة لن تتجاوز حدود اللياقة و لن تخترق الممنوع (الحديث عن أمور الملك).إن هذه الإسقاطات على الآخر تنهض على عقد تخيل الملك أنه سيسيج نصيحة بيدبا في إطار الكلام المباح الذي تحكمه مجموعة من القيم الخاضعة للنظام الخلاقي للقصر.و بقدر ما ارتقى الملك إلى درجة اليقين من الحصول على الامتياز بقدر ما كانت الخيبة موجعة و السقوط عنيفا و العقوبة التي سلطها على بيدبا قاسية:

"فلما فرغ بيدبا من مقالته ،و قضى مناصحته ،أوغر صدر الملك فأغلظ له في الجواب استصغارا لأمره ،و قال :لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحدا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله،و لا يقدم على ما أقدمت عليه ،فكيف أنت مع صغر شأنك و ضعف منتك و عجز قونك؟و لقد أكثرت إعجابي من إقدامك علي،و تسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك .و ما أجد شيئا في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك"[54].

و تندرج هذه العقوبة في إطار برنامج الانتقام الذي يشتغل في اتجاهين :أولا التنكيل بيدبا ؛يهدف هذا الفعل إلى تحقيق نتيجتين :

أ-تسليط العقوبة عليه بما يردعه

ب-ترويع غيره من إتيان مثل صنيعه

---

(52) ص.20

(53) إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات،حامد عبد القادر،محمد علي النجار ، المعجم الوسيط،دار الدعوة ،استانبول،تركية،1989،مادة /وغر/.

(54) ص.20

ثانيا:تطويق دائرة احتجاج ممكن الحدوث بطلب تلاميذه و من كان يجتمع إليه

"أنفذ في طلب تلاميذه و من كان يجتمع إليه فهربوا في البلاد و اعتصموا بجزائر البحار"[55].إن تنفيذ هذا البرنامج المضاعف هو في الواقع مسخر للتعويض و سد افتقار أحدثه الهزة الكلامية العنيفة في نظام الملك الذي يحركه الملك في تعامله مع الرعية .و إذا كانت هذه الهزة موجعة للملك،فإنه لن يرتاح و لن يعيد توازنه النفسي إلا بتسليط عقوبة قاسية محدثة لألم ينبغي أن يشعر به بيدبا.و لئن كانت هذه العقوبة ، من منظور الملك ، غير كافية و غير متوافقة مع الجرح العميق الذي خلفته النصيحة ،فإن الملك ارتقى بها إلى إصدار الحكم بالإعدام على بيدبا :

" ثم أمر به أن يقتل و يصلب" [56].

و لكنه سرعان ما تراجع عن الأمر بتنفيذ القرار ، و اتخذ قرارا آخر يتضمن تخفيفا في العقوبة :

"فلما مضوا به فيما أمر ،فكر فيما أمر به فأحجم عنه ،ثم أمر بحبسه و تقييده" [57].

يمكن أن نؤول التراجع على أنه يشكل لحظة حاسمة في مسار الملك الذي يتطور بشكل إيجابي و يرتقي من الارتجال في الحكم الصادر عن توتر انفعالي إلى التفكير الجدي(فكر فيما أمر به) الذي يرتهن إلى استشارة العقل.إن هذا الارتقاء هو في الواقع محصلة من القيود التي ألزم بها نفسه في اللحظة التي جمعته بالفيلسوف و التزم فيها احترام حريته في التعبير.و تعد هذه القيود ،كما لاحظنا ذلك في بداية التحليل،نتيجة للتنازلات التي استدرجه إليها بيدبا.في هذه اللحظة السردية التي احتكم فيها الملك في سلوكه إلى عقله على حساب أهوائه و نزواته،بدأت تتطور الأمور بسرعة بفعل ظهور مرسل(الفلك) من طبيعة سماوية حرك الملك لينتصب فاعلا مفترضا في برنامج التحري عن حقيقة أسرار تفلك الفلك و حركات الكواكب:

"حتى إذا كان ليلة من الليالي سهد الملك سهدا شديدا ،فطال سهده ، و مد إلى الفلك بصره،و تفكر في تفلك الفلك و حركات الكواكب"[58].

---

[55] ص.20

[56] ص.20

[57] ص.20

[58] ص.20

و يتحدد ارتقاء الملك ، على المستوى الخطابي ، من وضعية مضطربة إلى وضعية قارة و من حالة متوترة متسمة بالميل إلى الاعتداء إلى حالة هادئة مسومة بالتفكير في العالم السفلي و في العالم العلوي، عبر مجموعة من الصور تتضامن وحداتها المضمونية لتحيل على برنامج تكون فيه السلطة للفكر :

❶"و تفكر في تفلك الفلك

❷فأغرق الفكر فيه

❸فسلك فيه إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك ،

❹و المسألة عنه " [59]

تملك دبشليم في بداية هذا البرنامج رغبة حادة في معرفة ما يجري في عالم الفلك .و قد انتصبت هذه الرغبة في اللحظة التي مد بصره إليه .و أثارت هذه الرؤية الصاعدة في اتجاه عمودي من الأسفل إلى الأعلى و المتقاطعة مع مجال سماوي يغطيه البصر ، سؤالا يتحرى الفاعل فيه جوابا .إن عملية التحري تعلقت لأن الفاعل لا يملك القدرة و لا المعرفة على تبين الشيء.و من الواضح أن افتقاده إلى المعرفة في هذا البرنامج الأساسي و رغبته في الدخول في وصلة بموضوع القيمة (درك الشيء في حقيقته) يطرح إشكالا لا يمكن أن يصوغ له جوابا إلا إذا قدم تنازلا نعتبره أساسيا لأنه سيقلب موازين القوى بخصوص الوضع العاملي الجديد الذي سيضطلع به بيدبا في البرنامج الملحق و المسخر لتحريك كفاءة الملك في اتجاه يمكنه من تبين معالم الشيء الذي عجز عن إعطائه معنى و تحقيق أدائه المعرفي:

"فذكر عند ذلك بيدبا،و تفكر فيما كلمه به ،فارعوى لذلك .و قال في نفسه : لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، و ضيعت واجب حقه،و حملني على ذلك سرعة الغضب(...) .و إني أتى إلي رجل نصح لي ،و لم يكن مبلغا ،فعاملته بضد ما يستحق .و ما كان هذا جزاءه مني ،بل كان الواجب أن أسمع كلامه ،و أنقاد لما يشير به.ثم أنفذ في ساعته من يأتيه به "[60].

[59] ص.20

[60] ص.21/20.

نلاحظ في هذا الملفوظ أن رغبة الملك في معرفة استدارة مدار النجوم انزاحت عن مسارها تماما لتحرك الملك للتفكير،على نفس مستوى البعد المعارفي، في بيدبا بوصفه رمزا علميا يملك المعرفة في تأويل و من ثم ضرورة إعادة تأويل نصيحته.إن التطور الإيجابي في كفاءة الملك هو محصلة لرؤيته الجديدة إلى الكون و إلى الحياة قوضت نظاما في التسيير يحتكم إلى العاطفة في خضم تفاعلاتها و نزواتها المدمرة ، و القمع و البطش و الرعب .فقامت على أنقاضه قيم جديدة انتصبت لتحدث قطيعة جذرية مع ما مضى بنفي الجهل(❶)و تثبيت المعرفة (❷)"[و تفكر فيما كلمه به ،فارعوى لذلك" [61]] على نحو ما يظهر ذلك واضحا في الترسيمة الآتية :

اللاجهل (ارعوى)

من منطلقات هذه الوضعية النهائية التي آل إليها النص ، يثمن دبشليم المشروع الإصلاحي لبيدبا بانخراطه في قيمه الأساسية التي تكفل الحقوق الجماعية ، و إعادة تسيير الفعل السياسي في ضوئها بخلق انسجام بينه و بين الرعية. و نلقى تجليات حسن نية الملك في تشييد عهد جديد في استوزاره بيدبا الذي جلس بمجلس العدل والإنصاف ،يأخذ للدني من الشريف ، ويساوي بين القوي و الضعيف ،و رد المظالم ،و وضع سنن العدل"[62] .

البيبليوغرافيا

-بيدبا ، كليلة و دمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع ،الطبعة الرابعة ،مؤسسة المعارف ، بيروت ، 1983

-محمد الناصر العجيمي ، في الخطاب السردي /نظرية قريماس(Greimas) ، الدار العربية للكتاب،تونس ،1993 .

[61] ص.20

[62] ص.23

-A.J.Greimas ,J.Curtés ,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,HU,Paris,1979,189.
-J.Courtés , L'énonciation comme acte sémiotique , Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998,p.24.
– إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات،حامد عبد القادر،محمد علي النجـــار ، المعجـــم الوسيط، دار الدعوة، استانبول،تركية،1989